من ذكريات رحلة الجامعة المصرية الى أوربا

زاكوپانا ZAKOPANE

مدينة الأحلام والثلج

بقلم محمد عبد الرحيم عنبر

كان فى برنامجنا الطويل أن نزور بولندا ، فوصلنا عاصمتها الجديدة « فارسوفيا » فى مساء ١٧ أغسطس الماضى ، كما كان من المقرر أن نقيم فيها ثمانية أيام ، إلا أن أموراً شاقة عرضت لجمات رئيس الرحلة يغير وجهة السير ، إذ أن شرذمة كبيرة من مهرة « النشالين اليهود » قد احتفت بمقدمنا الاحتفاء اللائق ! ومما زاد فى مضايقتنا اجراءات البوليس البولندى التى كان لها كل الفضل فى تأخير وصول حقائبنا الى « بيت الطلبة » القذر الذى هيئ لاقامتنا ! . وكان أغلبنا قد غلبه النعاس من فرط الأعياء فأسلم عينيه لسلطان الكرى ونام ببذلته نوماً هنيئاً حتى تبدت خيوط الصباح فى اليوم التالى . وفى ذلك اليوم استفحلت احتفاءات النشالين الى درجة مزعجة

فكان طبيعياً اذن أن يستقر بنا الفكر على مغادرة فارسوفيا بعد اذ جاهدنا جهاد الأبطال فى الذود عن « جيوبنا » مما عما من نفوسنا جمال كل رؤية !

وعلى رصيف المحطة حدثنى أحد الأولاد البولنديين عن هذه الظاهرة فى أسف قائلا لى : « يؤلمنا جداً أن يزعجكم أولئك النشالون الدوليون من سفلة اليهود الذين تضيق بهم بلادنا ! » فشكرته وطيبت خاطره لكى أذهب عن وجهه لمة الخجل

وبعد سفر شاق دام عشر ساعات بالقطار بلغنا زاكوپانا . وكم كان المنظر رائعاً حين كنا نعدو سراعاً خفافاً ، كل خمسة منا فى عربة رشيقة صغيرة ذات حصان واحد بهب الأرض نهباً ، ويطوى المسافات الطويلة صاعداً فوق صدر ربوات عالية فى طريقنا الى فندق « مارتون Maraton » الجميل الذى يطل على قلب المدينة من فوق ارتفاع تسعمائة متر ، ارتفاع شاهق يتيح للنزل أن يدوروا بأعينهم فوق آفاق الجبال السامقة الترامية الأطراف ، ذات التيجان الثلجية ؛ أو أن يرسلوا أنظارهم بعيداً الى حيث تفترش أشعة الشمس رقع الأرض ذات الألوان الصارخة المختلفة ؛ وأينما تقع أبصارهم يشاهدوا جمالاً أخاذاً ، ويروا صوراً مختلفات من سحر الطبيعة الخالدة . فها هى ذى تلك الذرى الشاهقة — ذرى الجبال — تلتحف بأوشحة رمادية فاتنة من ضباب كثيف لا يلبث أن يستحيل رذاذا خفيفاً ثم مطراً ثقيلاً يتجمع ليفترق لينتهى الى جداول ضئيلة تتشابك أو تتشعب ، وتلتوى أو تستقيم ، وتنتهى بدورها الى بحار أوسع تعترضها صخور ضخمة ترقاها المياه بعد صراع عنيف تنبعث فى لحظات عنفوانه ألحان الانتصار وأنغام موسيقية شجية فتنة الناظرين ومرح السامعين !

وها هى ذى الغابات الكثيفة تزين كل مكان وتهز فى النفوس حنين الالتجاء الى أحضانها ، فى ظل أشجارها الباسقة ، وتحت أغصانها المتهدلة ، لقضاء ساعات طوال بين الخضرة والماء والوجه الحسن !

وههنا وهناك المنازل الخشبية الريفية على صدر الجبال وقممها أو على قلب السهول ، متقاربة حينا ومتباعدة أحيانا . وتبدو جلية طورا تحت أشعة الشمس وبين الرياض النضرة كأنما هى زهرات من بنفسج فضاح ! وشاحبة طورا بين لفائف الضباب كأنها فكرة سابحة فى خيال شاعر مفتون !

فكيف إذن لا تكون زاكوپانا مدينة الخيال والأحلام ؟

وزاكوپانا ليست مصيفاً فقط ، كأنها ليست مشتى فقط ، بل هى هما معاً . فالمجنون بها يرحلون اليها فى الصيف كما يرحلون اليها فى الشتاء ، ويبهرهم جمالها فى الفصلين . فاذا زرتها فى الصيف فلست منتهيا من سماع وصف الشتاء حين يهبط بثلوجه فتتحول تلك البقاع الخضراء الضاحكة الى بساط فاتن من الثلج فتتيح للناس الانزواء فى منازلهم يلتمسون الدفء والراحة . وتعطى الأزواج فرصة الأوبة الى زوجاتهم مبكرين على غير العادة ! ولا يخرج إلا أولئك الراغبون فى الانزلاق على الجليد . عادة شائعة فى تلك البلاد

فاذا كان الشتاء حدثوك عن جمال الصيف وسحره . الصيف

الفتون حيث تطوى شمسه الدافئة ذلك البساط الرهيب وتدفع بأفواج الناس الى أحضان الغابات ، راجلين أو فوق ظهور الجياد . حيث تدب الحياة من جديد فى الكائنات المقرورة . حيث تلبس الطبيعة رداءها الجديد ! فالناس هناك لذلك تواقون الى الرياضة العنيفة . وتتجلى هذه الروح فى الطفل والشاب والشيخ ! فى الرجل والمرأة ! فى الفقير والغنى ! فى العاشق والخلى ! فى كل كائن حى حتى الحيوان الذليل . . .

والقوم هناك لايألون جهدا فى توفير أسباب السعادة حيث يعيشون عيشة الفطرة وينزعون عن أجسامهم المنهكة أردية السهرات الأنيقة وملابس العمل الثقيلة . فلا كلفة ولا تصنع ولا رياء ولا حقد ولا مفاخرة كاذبة . تأويهم المدنية كلهم على السواء ، ولا تجعل لأحدهم مجال الفضل على آخر ، كأنهم أسرة واحدة يخرجون الى الشوارع « بالبيجامات » وأثواب النوم . ذلك الأمر المستقبح فى مدن العمل والرسميات . يتبادلون المجاملات الرقيقة كأنهم متعارفون متوادون منذ زمن بعيد

ولم يحاول أهل تلك البلاد زخرفة الطبيعة . بل تركوها كما هى بزركشتها الالهية . وإن كان هناك ثمة مجهود يبذله الانسان فهو فى الاستمتاع بسحر الطبيعة ليس إلا ! فيتسلق الجبال أو ينزلق على الثلج ، . . الخ . وزاكوپانا فى كل هذا كالجمهورية الفاضلة التى أسسها أفلاطون فى خياله الواسع ! . تكفى نفسها بنفسها وتعيش بذاتها لذاتها . يكاد يشعر المقيم بها أن تلك المدينة الوديعة هى كل ما يستطيع أن يتصور من الدنيا

وفيها السهرات الصاخبة التى تصل الليل بالنهار ، وتجعل السهران يستطيع أن يقول فى شىء من الزهو — إن كان هناك ثمة مجال لزهو — « بدأت سهرتى تحت ضوء القمر وختمتها تحت ضوء الشمس ! »

وإن أنس لا أنس تلك الليلة البارعة التى أمضيناها فى كازينو وتشاسكا Chaska حيث سمعنا ساعتين أو يزيد بمشاهدة الرقصات القومية التقليدية التى يؤديها الوطنيون فى ثوبهم الوطنى الموشى بالقصب والحرير ذى الألوان الفاقعة . يؤدونها رجالاً ونساء وأطفالاً ! يختلط الحابل فيهم بالنابل . يأخذ الرجل يد أية امرأة يقع عليها بصره ! ويمسك الطفل الغرير — مازحا — بذقن الشيخ العجوز المائل على حافة القبر ! ويحتضن الشاب الغريب الفتاة المكتملة ذات الصدر الناضج ! فيدورون جميعاً فى حلبة الرقص ، يتجاذبون ويصفقون ويلفون لفات سريعة بارعة على كعوب أحذيتهم أو أطراف أصابعهم ! ضاحكين متراقصين

* * *

وصعدنا مرات جبال تاترى « Tatry » راجلين أو ممتطين « القطار المعلق » الى حيث ارتفع بنا نحو ألفين وخمسمائة متر فوق سطح البحر ! نوع غريب من المواصلات لا يوجد الا حيث تتناهى الجبال الى مثل هذا الارتفاع الشاهق كسويسرا . وهو عبارة عن صندوق ذى أركان من الصلب وجدران من الزنك ، معلق فى أسلاك قوية شدت الى أعمدة متينة رفعت فوق ذرى الجبال السامقة . وفى كل ذروة محطة كبيرة ، ومكتبة وبوفيه صغيران

وزاكوپانا ككل قرية أوربية بها دار للسينما وأخرى للتمثيل وناد للرياضة . وتتوفر فيها كل أسباب الحياة من حوانيت ومقاه ومستشفيات وفنادق . . . الخ

وتنتشر هناك على الأخص الصناعات الخشبية الرفيعة كالتماثيل وأدوات المكتب والزينة والعصى لوفرة الخشب المجلوب من الغابات الكثيفة

هذه هى زاكوپانا التى تفتح ذراعيها لكل قادم . وتتألم لكل راحل بعد اذ يكون قد أنشأ بينه وبين المقيمين بها علاقات ودّ وصداقة ! المدينة التى تأوى كل هارب من مضنيات الحياة ، كل ناشد راحة ومتعة وسعادة وجمالاً !

وأخيراً ! المدينة التى قضينا فى رحابها ستة أيام بين جمال لا ينتهى وسحر لا يوصف . والتى غادرناها محملين منها فى حقائبنا بمقادير غير محصورة من الأحلام والشعر !

ولعل كثيرا منا دخل اليها وقد أقفلت دونه أبواب الشعر والنثر ، وخرج منها شاعراً مجيداً وأديباً فريداً ! ! ...

محمد عبد الرحيم عنبر
بكلية الحقوق — الجامعة المصرية